زكريا ويحيى عليهما السلام

تقدّمت بزكريّا السنون، وهو الآن مُشتهِب[1] الرأس، واهن العظم، معوج القناة، لا يستطيع من المشي إلا بمقدار أن يذهب إلى الهيكل[2] يتعهد شُؤُنه ويُلقي مواعيظه، ثم يتنسك ويَتألّه[3]، ويعود في أعْقابِ يومه يقضي ظلام الليل في بيت يحوي زوجَه وهي عجوز مثله، قد اشتعل الرأسُ منها شيباً، ولا يستطيع من العمل إلا بمقدار أن يذهب إلى حانوته ساعةً من نهار، فإن أصاب بعض مال مسحَ دمعَه البائس، وقضى حاجة السائل، ثم رجع إلى داره فارغاً إلا من فضل الله، صامتاً إلا عن ذكر الله.

ولكنه حتى هذه السنة التي أشرف فيها على التسعين، لم يُرزق طفلاً، ولم يُثمر ولداً، يتخذه سبباً يربطه بالحياة، ويصل ما بينه وبين الوجود، فكان يدخل البيت حزيناً، كاسف البال، قليل الرجاء... ثم هو عما قريب يطوي صحيفَة أيامه، ويمضي إلى حِمامه، فمن الذي يقوم على وراثة حكمته، والاضطلاع بأمانته؟ وهؤلاء مواليه وبنو عمومته أشرار، لا بد لهم من وازع، وسوائمُ مطلقةٌ يُعوزهم الراعي الرادع، ولو خُلّوا ونفوسهم فإنهم يمَحُون الشريعة، وينشرون الفساد، ويُغيِّرونَ معالم الكتاب.

ظلت هذه الخواطر تحِزُّ في نفسه، وتضطرب بين لفائفِ صدره، ولكنه كان صابراً متحملاً متجملاً، إلا من زَفرات كان يلفظها كلما جَنَّ عليه الليل، وأنّات كان يُصَعِّدها كلما احتواه الظلام.

ذلك قضاء الله فمن أجدر بالنبي من أن يتلقاه بالارتياح؟ وتلك حكمته، فمن أحق من زكريا بأن يقابلها بما تستحقه من الإذعان، فلَعَلّ من وراء ذلك حكمة لا يعلمها، ولعل الله يؤجل ذلك لغاية هو يجهلها، وله الحمد لله على ما أنعم، ومنا الصبر على ما أراد.

---

(١) شهب: خالط بياض شعره سواد.

(٢) الهيكل: البيت الضخم المقدس يشيده اليهود لإقامة شعائرهم.

(٣) يتأله: يتعبد.

ويذهب زكريا إلى الهيكل يوماً كعادته، ويُصَلّي ويتـنَسَّك، ويعبد ويتهجد، ثم يدخل على مريم محِرابها فإذا هي غارقة في تفكيرها، ذاهبة في صلاتها، ثم يرى أمامها شيئاً يذهله، ويثير سؤاله: هذه فاكهة أمامها، عجباً! تلك فاكهة الصيف ولكنا نحن في الشتاء، ثم من أين دخلت إليها، إنها من يوم أن تنازع سَدَنَةُ بيتِ المقدس في شأنها، وفاز سهمه بكفالتها، لا زالت حبيسةً في محِرَابها، محجوبة عن أترابها، حتى أن أمها من يوم أن أودعتها الهيْكل وفاءً بنذرها، وتقرباً إلى ربها، لم تسْعَ يوماً إلى لقائها، فمن أين لها هذا الرزق العجيب! وكيف اتفق لها هذا الأمر الغريب؟!

ليسألنَّها ويَسْتَكْنه أمرها، فقال: يا مريم، أنى لك هذا؟! قالت: هو من عند الله، يُصبح الصباح، فأرى رزقي حاضراً، ويُمسي المساء فأرى رزقي حاضراً، على أنني ما سعيت لهذا الرزق، ولا سألت الله ذلك الخير، ولكنه يأتيني عفواً، وأجده أمامي سَهلاً، ومالك تُدْهَش وتَعجب، ومالك تؤخذ وتُشْده! أليس الله يرزق من يشاء بغير حساب؟

عند ذلك أدركت زكريا حال جديدة، ودخل في تأمل عميق، فلقد أثارت في نفسه هذه الفتاة الكريمة، وتلك الربَّانية[1] المقربة الحنين إلى الوَلد، والرغبة في البنين! حقًّا إنه قد وهَنَ منه العظم، ورقَّ الجلد، وبلغ به الكبَرُ، ولم يَعُد فيه للولد مطمح، وامرأته العجوز العاقر ليس في نفسها للنسل رجاء، ولكن أليس الله ـ الذي اختص مريم بالكرامة، وحباها النعمة، ورزقها الفاكهة الغريبة، تأتيها كل يوم في غير أوانها ـ بقادر على أن يرزقه ولداً، وإن كانت امرأتُه عاقراً، وإن كان قد أصبح شيخاً فانياً! لِيدعُ الله، فما هو بيائس من استجابة دعواه!

وبسط زكريا يديه متوسلاً، وهَمَس بصوته داعياً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾[2] وزكريا كان أكرم على الله من أن يَرُدّ دعوته، وأعز عليه من أن يخيب رجاءَه، فإنه ما مكث طويلاً حتى نادته الملائكة ـ وهو قائم يصلي في المحراب: يا زكريا، إنَّ الله يُبَشِّرُكَ بِغلاَمٍ اسمُهُ يحيى لم نَجْعَلْ لهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا.

وسمع زكريا النداء، فشُدِهَ وعَجِبَ، وحاشاه أن يكون غافلاً عن قدرة الله، أو يائساً

---

(١) الربانية: المتعبدة ربها العارفة به.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٩.

من استجابة دعواه، ولكن أدركه ما يدرك المؤمَّل وجد رجاءه والسائل العافي وجد حاجته، ثم عاد فسأل الله: كيف يرزقه طفلاً، وقد أصبح شيخاً فانياً، وامرأته عجوز عاقر، كما سأل إبراهيم ربه من قبله: كيف يحيي الله الموتى؟ وكيف يُبْعث الناس يوم النشور؟ وما كانا بسؤالهما جاحديْنِ، ولكن ليزداد قلبهما اطمئناناً.

وقالت الملائكة: أليس الله ـ الذي خلقك من قبل ولم تكُ شيئاً ـ بقادر على أن يرزقك الولد، وإن كنتَ في أعقابِ أيامك، وأطراف حياتك؟

سأل زكريا ربَّه أن يجعل له علامة تتقدّم هذه العنايَة، وتدل على وقوعها؛ أجابه الله: إنّ آيتك أن تَعْجِز عن خطاب الناس بحَصَر يعتري لسانك ثلاثة أيام وإن أردت الكلام فلا تستطيعه إلا إشارة أو رمزاً.

ورزقه الله على الكبر يحيى: غلاماً زكياً، فأحكم الله عقله، واستنبأهُ صبياً، ثم عشقَ العبادة حتى أصبح منهوك الجسم، نحيل الظل، مُتَضَمِّر[1] الوجه، معروق[2] العظام، واشتهر بالعلم، حتى أحصى مسائل التوراة واستجلى غوامضها وأحاط بأصولها وفروعها، وأضحى فيصل أحكامها، وقاضي معقولها، وعُرِف بين الناس أنه جريء في الحق، شديد على الباطل، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا صَوْلة عاتٍ ظالم.

نقلوا إليه يوماً أن هيرودوس حاكم فلسطين، قد هوى هيروديا بنَتَ أخيه، إذ كانت بين عينيه بارعة الشكل، فتّانة المحاسن، جميلة التكوين، وأنه قد عزم على زواجها، والدخول بها، وظاهرته على ذلك أمها، وَذَوو قرباها، فأعلن يحيى أن ذاك زواج باطل لا تقرّه شَرِيعة، وتأباه رُوحُ الكتابُ، وقال: إني لا أعترف به، وأجهر باستنكاره.

وشاع رأيُهُ في المدينة، وفي القصور، وفي الخدور، وفي أماكن اللهو، وفي مواطن العبادة، وبلغ هيروديا ما جهر به يحيى، وما اشتهر به بين الناس، فسخطت عليه في نفسها، وأضمرت الحسيكة[3]، وأبطنت الغلَّ، ثم استحال غيظها إلى حزن وكمد، وهم وأسى، وخافت أن تذهب هذه القَالةُ برجائها المعسول، وربما صرفت عمَّها عن الزواج،

---

(١) ضمر: هزل وقَلَّ لحمه، فهو مضمر.

(٢) يقال فلان معروق: إذا كان قليل اللحم.

(٣) الحسيكة: الحقد والعداوة.

ولكنها عزمت على أن تستعينَ بحسنها وجمالها فلعل جمالها يُنيلها غرضها، ويحقق غايتها، فتجملت ما استطاعت أن تتجمّل، وعنُيت بزينتها ما قدِّر لها أن تعنى، ودخلت على عمها قسيمةً وسيمَة، حسنة الشارة، جميلة الهيئة، فاقْتَنِصَ بحبائل فتنتها، واختُلب بعذوبة منطقها، ثم سألها أي أمنية تتمنين؟ قولي فأنا رُهْنٌ لإشارتك، قيدٌ بكلمتك!

قالت: إن رضي الملك فلست أبغي إلا رأسَ يحيى بن زكريا، ذلك الذي سَمَّع بالملك وبي في كل مكان، وغمزه[1] في كل ناد، إن رضي الملك بذلك فإني قريرة العين، هادئة البال، منقوعة الغليل.

فأجاب لداعي الهوى، وأصاخ لكلمة الجمال، وأصمَّ عن نداء الضمير وهُتاف الوجدان، وما هي إلا ساعات حتى كان رأسُ يحيى بين يديها، فشفت غلها، وأطفأت وَقْدَة غيظها، ولكنها استنزلت لعنة الله عليها وعلى نبي إسرائيل.

---

(١) غمز على فلان: طعن فيه.